

الفصل الأول

عصر الشريف الرضى

١ - الحياة السياسية

ولد الشريف الرضى سنة ٣٥٩ هـ ، وتوفى ببغداد سنة ٤٠٦ هـ ، وبدا يكون قد عاش في النصف الثاني من القرن الرابع الهجرى ، وأدرك ست سنوات من القرن الخامس . والحق أن القرن الرابع مملوء بالأحداث الكثيرة الخطيرة التي كانت ذات بال في تاريخ العرب والإسلام والخلافة العباسية .

لقد تميز القرن الذي ولد فيه الشريف الرضى بظهور الدعوة الفاطمية ، ودخول جوهر الصقل مصر سنة ٣٥٨ هـ ، ودخول الخليفة المعز لدين الله الفاطمى مصر سنة ٣٦٢ هـ ؛ بعد أن مهد له جوهر ، وأقام له الدعوة ، وبني له مدينة القاهرة ... وكان الفاطميون ينافسون العباسيين على الخلافة ، فدعى لهم على منابر المساجد في مصر وأفريقية والشام واليمن ، بل استفحل الأمر في سنة ٣٦٤ هـ فوقعت الخطبة بمكة والمدينة للمعز لدين الله الفاطمى ، وفى سنة ٣٦٥ هـ حج بالناس في موسم الحج علوى من جهة العزيز الفاطمى ، وانقطعت الخطبة للعباسيين بالحرمين الشريفين منذ أصبح الفاطميون أصحاب نفوذ على الأراضى المقلسة .

ولقد اشترك الشريف الرضى وأخوه الشريف المرتضى في بعض مواسم الحج ، وشهدا بعينيهما كيف أن نائب الفاطميين بالحجاز اشترط أن تقام الخطبة للحاكم بأمر الله الفاطمى ، واضطر الخليفة العباسى مرغماً إلى قبول هذا الشرط .

وبلغ من اجترأ الفاطميين على خلفاء بنى العباس وعلى البويهيين أصحاب السلطان في العراق ، أن عضد الدولة بن بويه - صاحب الأمر والنهى بالعراق - سُرِّق له زبزب من الفضة على صورة السبع كان يضعه على صدره ، ثم قلبت

الأرض بحثاً عن سارقه ، فلم يوقف له على أثر ؛ وقيل إن الخليفة الفاطمي بمصر دس من فعل هذا بعضد الدولة ، على الرغم من هيئته المفرطة^(١) وشدة معاقبته على أقل جناية . . .

ويتميز القرن الرابع الهجري - فيما تميز به من أحداث جسام - بظهور دولة بني بويه التي بدأت في العراق سنة ٣٣٤ هـ ، حيث نزع رجالها السلطة الحقيقية من أيدي خلفاء بني العباس ووضعوها في أيديهم . وأصبح الخليفة العباسي لا يزيد على رئيس ديني لا أمر له ولا نهى ، ولا كلمة له مسموعة ، وإنما الأمر كله بيد السلطان من بني بويه ، الذين خلع العباسيون عليهم الألقاب الفخمة ، وأذنوا لهم في أن تضرب ألقابهم وكناهم على النقيض . . .

ولم يكن نفوذ بني بويه - وهم من الديلم - هو الوحيد في العراق عامة وبغداد خاصة ، فقد كان الأتراك ، وعلى رأسهم « سبكتكين » يمثلون جبهة أخرى للنفوذ الأجنبي في العراق العربي . ولقد كان لكل من الجبهتين منزع مذهبي يناقض منزع الآخر . فبنو بويه يؤيدون المذهب الشيعي ويحذونه ويتعصبون على أهل السنة ، والأتراك يميلون إلى مذهب أهل^(٢) السنة ويناصرونهم . وكان من الطبيعي أن يكون الصراع بين هاتين الجبهتين الأجنبيتين المتنافستين غير العربيين على حساب العنصر العربي كله . . والأدهى من ذلك أن الدويلات التي انقسمت إليها الدولة العباسية كان أكثرها دولاً غير عربية : كالسامانية فيما وراء النهر ، والزيارية بمرجان ، والبويهية بالعراق وفارس ، والغزنوية بأفغانستان والهند . ولعل الدويلات العربية التي ظهرت في ذلك العصر كانت رد فعل لظهور الدويلات الأجنبية ، فكأنها قامت لتؤكد الكيان العربي ، ولو أنها لم تبلغ من القوة والكثرة مبلغ الدول غير العربية ، كالدولة الحمدانية بحلب والموصل ، ودولة بني شاهين بالبطائح . ولقد كان ناصر الدولة بن حمدان

(١) المنتظم لابن الجوزي ج ٧ ص ١٠٧ في حوادث سنة ٣٧١ هـ .

(٢) المصدر السابق ص ٦٨ ج ٧ ، وتاريخ آداب اللغة العربية لزيدان ج ٢ ص ٢٢٤

ومعاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للحضري ص ٤٢٤ .

أمير الحمدانيين بالموصل يتربص الدوائر بمعز الدولة بن بويه سلطان العراق ويريد الإغارة على ما بيده . ومن عجب أن استقلال العرب الحمدانيين بحلب وجزيرة الفرات والموصل لم يكن تاماً ، فقد كان النفوذ في دولتيهما بجماعة من القواد الأتراك . . .

وامتد الصراع على السلطان والنفوذ في ذلك العصر بين بنى بويه أنفسهم ، ففي سنة ٣٦٤ هـ شغب عضد الدولة على ابن عمه عز الدولة بخيتار حينما كانت لهذا إمارة العراق . وفي سنة ٣٧٦ هـ ، شهدت أرض العراق قصة النزاع بين الأخوين صمصام الدولة ، وأخيه شرف الدولة ابني عضد الدولة بن بويه . . . ولم تدع هذه الجهات المتصارعة ، والأطراف المتنازعة ، مجالاً للهدوء في العراق وبغداد . فلا يكاد يمر يوم دون فتنة تحدث ، أو شغب يقع ، سواء أكان خلافاً بين الديلم والترك ، أم بين السنة والشيعة . ونذكر على سبيل المثال ذلك الشغب الذي حدث من الديلم في سنة ٣٨٣ هـ ، فيروى لنا ابن الجوزي المؤرخ أنهم شغبوا شغباً شديداً (لأجل فساد النقد ، وغلاء السعر وتأخر العطاء . ومنعوا من الصلاة بجامع الرصافة . فلما كان بكرة السبت قصدوا دار أبي نصر سابور ، بباب خراسان ، وهجموا فنهبوها ، وأقلت من بين أيديهم هارباً على السلطوح ، وثارت بذلك فتنة دخلها العامة . . .)

وكان العراق لم تكفه هذه الفتن ، فاشتدت عليه فتنه القرامطة الذين بدءوا بالظهور في القرن الثالث الهجري ، وامتدت بهم الفتن إلى القرن الرابع . ففي أول عهد الشريف الرضى بالشباب الباكر سنة ٣٧٣ هـ وافي جيش منهم إلى البصرة ، وخاصة بعد أن أطمعهم موت عضد الدولة بن بويه الذي كان قوي الشكيمة ، فصالحوا على مال أعطوه ، وانصرفوا إلى مكان دعوتهم . وفي ٣٧٥ أعادوا الكرة على الكوفة فتغلبوا عليها وأقاموا الخطبة لشرف الدولة بن بويه مصانعة له على أخيه صمصام الدولة . وقد عاثوا في الأرض فساداً ، وأكبوا على تناول الغلات ، واستخراج الأموال من أصحابها ، ولكن عسكرياً من بغداد توجه إليهم فصرفهم . وقد آذنت بداية القرن الرابع الهجري بهجمات شديدة من الروم على

أطراف المملكة الإسلامية . وأخذوا يتحرشون بالعرب في كل مكان متاخم لهم أو قريب منهم . ففي سنة ٣٠٣هـ - كما يروى ابن الأثير - أغارت الروم على الثغور الجزرية ، وقصدوا حصن منصور ، وسببوا من فيه ، وجرى على الناس أمر عظيم ، وشغلوا عن ملاقات العدو بفتنهم الداخلية ... وفي سنة ٣١٣هـ ، استولى الروم على مدينة ملطية فخربوها ، ولما رأى أهلها ما حل بها من التخريب هربوا لاجئين إلى بغداد - باعتبارها عاصمة الخلافة - مستغيثين بها فلم يغاثوا ... وقيل مولد الشريف الرضى بعام واحد دخل الروم « كفتوتوا » فسببوا وقتلوا المئين من أهلها ، ثم تقدموا إلى حمص فوجدوا أهلها قد انتقلوا عنها ، فأحرقوها ونكسوا في الثغور الإسلامية . وفي سنة ٣٥٩هـ - وهي السنة التي رأى فيها الشريف نور الحياة - غزا الروم بقيادة ملكهم نقفور مدينة أنطاكية ، فأجأوا الشيوخ والوجهات والأطفال إلى الفرار ، وسبوا من الغلمان والأطفال والشبان والنساء أكثر من عشرين ألفاً . . .

وفي سنة ٣٦٢هـ ، دخل الروم مدينة نصيبين ، واستباحوا حرمتها ، وقتلوا وأسروا كثيراً من الرجال والنساء والصبيان . وقاض بالعرب والمسلمين الكيل مما يلقونه من تحرش الروم وعدوانهم كل يوم ، فاجأ كثير من أهل الثغور الإسلامية إلى بغداد هارين أو مستجدين بالخليفة العباسي - وهو أضعف من أن يُبرم أمراً - فانتشروا في الجوامع ، وكسروا المنابر ، ومنعوا الخطبة ، وحاووا الهجوم على دار الخليفة المطيع لله ، واقتلعوا بعض شبابيكها ، وقام حرم القصر يصدون عدوان الثوار ، فازداد هياج اللاجئيين ، وخاطبوا الخليفة بما لا يليق ، ونسبوه إلى العجز عما أوجبه الله على الأئمة ، وأفحشوا القول . . . ولم يجد عز الدولة أبويعبى بدءاً من التدخل فوعد بغزو الروم واستنفر الناس للجهاد . وهنا أعاد الله للعرب القوة والتماسك فخرج جيش المسلمين يغزو الروم ، فهزمهم وأسروا منهم كثيراً على رأسهم أميرهم والبطارقة ، وبعثوا برؤس القتلى إلى بغداد شفاءً لصدور المسلمين . . .

وكان من الطبيعي أن تؤدي هذه الأحوال مجتمعة إلى ضعف الخلافة العباسية

وقلة هيبتها . وبلغ من ضعفها أن قواد الأتراك والديلم كانوا يولون من الخلفاء ويعززون من يشاءون ، كما أصبح السلاطين والأمراء يتولون ذلك . فالقائد الذي يلمى « توزون » يقبض على الخليفة العباسي المتى ويعزاه سنة ٣٢٣ هـ ، ويباع بدلا منه المستكنى بالله والمستكنى بالله نفسه لم يمكث في الخلافة إلا سنة وأربعة أشهر ، فقد توهم معز الدولة البويهى أنه يدبر عليه ، فدبر له هو خلعه بأن دخل عليه اثنان من الديلم ، فتناولا يديه فلدها ظاناً أنهما يريدان تقبيلها فجدبها من فوق سرير الخلافة وطرحاه على الأرض وجراه بعمامته . . . ثم ساقوه ماشياً إلى دار معز الدولة . . . فخلع وسملت عيناه . . .

والذى فعله معز الدولة البويهى مع الخليفة المستكنى ، فعله بعد ذلك بهاء الدولة البويهى مع الخليفة الطائع سنة ٣٨١ هـ ، فقد دخل عليه بهاء الدولة ومعه عدد كثير من الديلم ، فلما دخل على الخليفة قبل الأرض كما جرت العادة ، وأجلس على كرسي ، وهنا دخل بعض الديلم كأنه يريد أن يقبل يد الخليفة ، فجدبه وأنزله عن سرير الخلافة بشدة ، والخليفة يستغيث ويقول : إنا لله وإنا إليه راجعون ، فلا يغيثه أحد ، وتصادر حجره ونزائنه وخلعه وحواشيه ، وتخرس زوج الخليفة وهي أخت بهاء الدولة فلا تستطيع حتى الاحتجاج على أخيها . ويكتب الطائع كتاباً بخلع نفسه وتسليمه الأمر إلى القادر بعده . . .

وبلغ من هوان الخلفاء على السلاطين والأمراء أنهم كانوا هم الذين ينزلون من قصورهم ليلتقوا السلاطين ، ويستقبلوا الأمراء ، ففي حوادث سنة ٣٧٠ هـ ، يذكر المؤرخ ابن الجوزى أن الخليفة الطائع خرج ليستقبل عضد الدولة بن بويه حين مجيئه إلى بغداد . . . ولم تكن العادة جارية بخروج الخلفاء لتلقى أحد من الأمراء . وقبل ذلك خرج الخليفة المطيع من قصره ليقدم العزاء إلى معز الدولة البويهى في وفاة أخته فاطمة . . .

ب - الحالة الاجتماعية

إن عصرًا مضطربًا كثير الفتن ، موزع الدويلات ، شديد الصراع بين التيارات الكثيرة المتموجة لا بد أن يكون المجتمع فيه على غراره مضطربًا متموجًا ، عديم القرار ، معطل الحركات . وإذا كنا لاحظنا في الفصل السابق سقوط هيئة الخلفاء ، فإننا نشير هنا إلى سقوط هيئة بعض الوزراء ، مما جعل زمام الأمور كلها مضطربًا في الدولة الإسلامية . فالوزير أبو محمد المهلبى - وهو من بيت الحكام الإداريين القدماء من عهد الأمويين - يتلقى من السلطان البويهى معز الدولة مائة وخمسين مفرعة ، على هيئة « علقمة ساخنة ! » ، ويحبس في داره على سبيل « الحجز التحفظى » فلا يزور ولا يزار ويحبس عز الدولة بختيار بن معز الدولة فيستوزر صاحب مطبخه وكان يحمل الغضاير بيده ، ويتشج بمناديل الغمر ، وينوق ألوان الطعام عند تقديمها واسمه (ابن بقة) ، فلما صار وزيراً أصبح الناس يقولون : من الغضارة إلى الوزارة^(١) .

ولما ضعف أمر الإمارة والوزارة والإدارة صار ضروريًا أن تكثر الفتن ، ويحدث الشعب ، ويقع بعض الجماعات ، وترتفع الأسعار إلى مالا قبيل للناس باحتماله ، وتفشو الأمراض ، ويظهر العيارون واللصوص وقطاع الطرق فن الجماعات ما حدث في سنة ٣٧٣ هـ ، فقد زادت الأسعار زيادة مفرطة ، ولحق الناس مجاعة عظيمة ، وارتفع سعر الحنطة إلى حد كبير ، فضج الناس وحطموا منابر الجوامع ، ومنعوا الصلاة في عدة جمع ، ومات كثير من الضعفاء جوعًا على الطريق .

وفي سنة ٣٧٧ هـ ، زاد الغلاء وارتفع سعر الدقيق الحشكار (غير الناعم) ارتفاعًا فاحشًا فجلد الناس عن بغداد تفادياً لموجة الغلاء . وفي سنة ٣٧٨ هـ ،

غلت الأسعار وعمدت الأقوات حتى مات كثير من الناس جوعاً . وفي سنة ٣٩٣ هـ ، ارتفعت الأسعار ارتفاعاً فاحشاً ، وعمدت الخنطة من الأسواق وبلغ ثمن الكرّ منها مائة وعشرين ديناراً ، وهو رقم لم يسمع الناس بمثله . . .

أما الأوبئة والأمراض فقد اصطلحت على المجتمع العربي في خلال ذلك العصر ، ففي سنة ٣٧٦ هـ ، - على سبيل المثال - كثر الموت في أول العام الهجري بالحُميات الحادة ، فمات من الناس خلق كثير . . . وفي السنة التي مات فيها الشريف الرضى وقع في البصرة وباء شديد ، وبلغ من كثرة الموتان أن الحفارين عجزوا عن حفر القبور . . .

ولم يكف الناس ما أصابهم من الغلاء والمجاعات والأوبئة ، فعاشوا في خوف ورعب دائمين من حوادث اللصوص وقطاع الطريق . ففي سنة ٣٦٤ هـ ، أحدث العيارون حريقاً هائلاً بالخشابين من باب الشعير ، فاحترق أكثر هذه السوق وما يليها من سوق الجزارين وأصحاب الحصر ، فهلك من ذلك كله شيء كثير . وزاد أمر العيارين فساداً في هذه السنة ، فركبوا الدواب جهاراً ، وتلقبوا بالقواد ، وغلبوا على الأمور ، وأخذوا رسوماً للخنقارة على الأسواق والدروب . . . وظهر في هذه الفترة عيار قائد يدعى «أسود الزبد» لأنه كان يأوى قنطرة الزبد كما يقول المؤرخ ابن الجوزي ، وكان ينهب الأموال ويشترى الجوارى بأعلى الأثمان . . .

وفي سنة ٣٨٠ هـ ، زاد أمر هؤلاء العيارين في جانبي بغداد مدينة السلام ، ووقعت بينهم حروب ، وعظمت بينهم الفتن ، واتصل القتال بين الكرخ وباب البصرة ، وصار في كل حرب أمير ، وفي كل حملة متقدم ، وانتشرت الحرائق المتعمدة ، ونهبت الأموال ، واتصلت الكبسات . وهنا نجد الشريف أبا أحمد الموسوي ، والد الشريف الرضى ، لا يعزل نفسه عن الأحداث والفتن ، بل يدخل فيها محموداً بحسن توسطه ، وكريم سعيه . . .

أما حوادث قطع الطريق فقد كثرت بصورة تلفت النظر . ففي سنة ٣٧٠ هـ كان رجل اسمه الصيدلاوي يقطع الطريق إلى أن احتال عليه بعض الولاة فقتله

وحمل رأسه إلى بغداد . وفي سنة ٣٧٢ هـ ، كانت عصابة من بني شيبان يقطعون الطريق ، فأوقع بهم عضد الدولة البويهى وأسر منهم ثمانمائة وفي سنة ٣٨٤ هـ اشتد أمر العيارين وقطاع الطرق . وظهر عيَّار خطير اشتهر أمره ، اسمه عزيز ، وانضم إليه كثير من الذُّعَّار . وفي سنة ٣٩٢ هـ ، انتشر الذُّعَّار وقطاع الطرق ، وانتشرت الفتن ببغداد ، مما اضطر بهاء الدولة البويهى أن يبعث عميد الجيوش أبا علي بن أستاذ هرمز إلى العراق ليدبر أمورها ، ويضع حداً للفساد فيها .

ولا نستطيع أن نمر بمجوادث اللصوص والعيارين في العراق دون الإشارة إلى اللص الكبير « ابن حمدي » الذى ظهر ببغداد في سنة ٣٣١ هـ ، وأعبا السلطان أمره ، وقد أشار إليه المؤرخ ابن الأثير في حوادث سنة ٣٣٢ هـ .

ويتصل بقطع الطريق الخروج على الحجاج ونهسبهم في مواسم الحج حين الذهاب والقفول . ففي سنة ٣٥٤ هـ ، قطع بنو سليم الطريق على قافلة المغرب ومصر والشام ، وكانت قافلة عظيمة فيها كثير من الحجاج التجار والمتقلين من الشام إلى العراق هرباً من غارات الروم . ونهب اللصوص كل أموال القافلة ومتاعها ، وزادوا فأخذوا جمال القافلة ، فصار رجالها جميعاً رجالة منقطعاً بهم وفي سنة ٣٦٤ هـ ، اعترض بنو هلال قافلة الحجاج ، فنهبوا شيئاً كثيراً ، وقتلوا خلقاً كثيراً ، وبطل الحج في ذلك العام ، ولم يسلم من الحجاج إلا من كان في ركب الشريف أبي أحمد الموسوى والد شاعرنا الشريف الرضى وهل ننسى ما فعله ابن الجراح الطائي^(١) بقافلة الحج سنة ٣٧٩ هـ ، فقد خرج على الحاج بين سميراء وفيد ، ونازلم ، ثم صالحهم على مبلغ كبير من المال يدفعونه إليه ، وعلى كثير من الأمتعة والثياب

وبلغ من اجترأ قطاع طريق الحاج أنه في سنة ٣٨٤ هـ ، اعترضهم الأصفير الأعرابي المشهور ومنعهم أن يجتازوا ، وذكر أن الدنانير التى أعطيتها في العام الماضى كانت دراهم مطليّة ، وأنه لا يفرج لهم عن الطريق إلا بعد

(١) ذكر الأستاذ رشيد الصفار الحامى محقق ديوان « الشريف المرتضى » ان اسمه « ابن الجراح »

أن يعطوه مال عامين . . . فرددوا وعادوا ولم يحجوا في عامهم هذا . . .
 وفي سنة ٣٩٩ هـ ، اعترض ابن الجراح الطائي حاج بغداد ، كما اعترض
 بنو رعب الهلالين - وكان عددهم ٦٠٠ رجل - حاج البصرة وأخذوا منهم
 ما يزيد على ألف ألف دينار . . .

وليس غريباً أن هذه الفتن والمجاعات والكسبات لم تدع أهل بغداد مستقرين
 في بلدهم ، فكثيراً ما كانوا يهجرونها مع قافلة الحجاج إلى الشام ومصر طلباً
 للأمن والقرار . . . كما نجده في سنة ٣٣١ هـ ، وفي سنة ٣١٣ هـ ،
 قبل ذلك .

ولم يترك الأمراء الناس أحراراً ينفسون عن صدورهم بما يقولون ، فقد كانت
 تحصى عليهم الكلمات ، وتؤخذ عليهم العبارات ، ويقوم بالتسجيل والتبليغ
 جماعة من المتخصصين في التجسس على الناس . ولانستشهد هنا بأحسن من
 عضد الدولة بن بويه ، فكان يبحث عن أسرار الملوك وينقب عن سرائرهم .
 وكانت أخبار الدنيا عنده ، حتى لو تكلم إنسان بمصر كلمة لوصلت إليه . وقد
 رقى إليه أن رجلاً بمصر ذكره بكلمة ، فاحتال حتى جاء به إليه في العراق ووبخه
 عليها ، ثم رده ثانية إلى مصر ! فكان الناس - كما يروى ابن الجوزي المؤرخ -
 يحترزون في كلامهم وأفعالهم من نسايتهم وغلمايتهم^(١) . . .

ولقد ظهرت في المجتمع الشيعي - وخاصة العراقي - ظاهرة النوح على
 الحسين الشهيد في يوم عاشوراء . وقد ساعد بنو بويه الشيعيون على المبالغة في
 هذه الظاهرة ، مما كان يثير سخط أهل السنة ، بما كان يقوم به عوام الشيعة
 من سب بعض الصحابة وسب معاوية . ففي سنة ٣٥٢ هـ وفي العاشر من المحرم -
 وهو ذكرى مصرع الحسين - غلقت الأسواق ببغداد ، وعطل البيع ، ولم يذبح
 القصابون ، ولا طبخ الهراسون ، ولا ترك الناس أن يستقوا الماء ، ونصبت القباب

(١) لقد كان الشريف الرضي غرضاً لهذا التجسس والرقابة ، فإذا قال قصيدة بلغت مسمع
 الأمراء والسلاطين والخليفة في التو والحال ، كما حدث لقصيدته الياثية التي تمنى فيها الجوه إلى الفاطميين
 بمصر . انظر الباب الخامس بالشاعر الطموح .

في الأسواق وعلقت عليها المسوح ، وخرج النساء منتشرات الشعور يلظمن وينحنّ وحدث مثل ذلك في سنة ٣٥٣ هـ وإن كانت المسألة انتهت بحدوث فتنة عظيمة بين السنة والشيعة ، جرح فيها كثير ، ونهب الناس بعضهم بعضاً . وفي سنة ٣٥٦ هـ ، عمل الشيعة ما يعملونه من النوح كل عام ، وكذلك في سنة ٣٥٧ هـ ، وسنة ٣٥٨ هـ ، وسنة ٣٥٩ هـ . وظل العمل جارياً على هذا الرسم الذي كان مجالاً لتفاقم الخلاف بين السنة والشيعة ، إلى أن كانت سنة ٣٨٢ هـ ، فأمر أبو الحسن الكوكبي المعلم - وكان متسلطاً على السلطان البويهى - بأن يمنع أهل الكرخ وباب الطاق من النوح في عاشوراء ، ومن عمل المسوح . وكذلك فعل عميد الجيوش في سنة ٣٩٣ هـ ، فأصدر أمره بأبطال هذه المراسم .

والحق أن البويهيين - بما كان لهم من مطامع بعيدة وخطر على الخلافة العباسية - مسئولون إلى حد كبير عن تفاقم أسباب الخلاف بين أهل السنة والشيعة . فقد كان لهم مصلحة في هذا الخلاف ليصلوا به إلى مآربهم السياسية . وكان معز الدولة البويهى يغض طرفه عما كان يفعله الشيعة ويكتيونه على مساجد بغداد استفزازاً لأهل السنة . ففي سنة ٣٥١ هـ ، كتب العامة على مساجد العاصمة العباسية لعن معاوية ، ولعن من غصّب فاطمة « فدكا » ، ومن أخرج العباس من الشورى ، ومن نفي أبا ذر الغفارى ، ومن منع من دفن الحسن عند جده عليه السلام . ولكن معز الدولة البويهى لم يحرك ساكناً نحو هذه الظاهرة ولم يمنع منها ولم يسكت أهل السنة أمام هذا التحرش ، بل كانوا يقابلون الاعتداء بمثله ، وإن كانت قدرتهم على المنع محدودة لكثرة الشيعة في العراق وبغداد من ناحية ، ولأن السلاطين والأمراء معهم من ناحية أخرى

ولقد لجأ أهل السنة في القرن الرابع إلى طريقة يقابلون بها أحزان الشيعة في يوم عاشوراء ، وأفراحها في يوم الغدير^(١) ، على نحو ما كان يفعل بنو أمية

(١) هو يوم غدیر خم الذي بايع النبي فيه علياً عليه السلام بالولاية قاتلاً : (من كنت مولاه فعلي مولاه . اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه) ولصديقنا العلامة الجليل الشيخ عبد الحسين الأمينى النجفى فيه موسوعة عظيمة تبلغ بضعة عشر جزءاً ، طبعت مرتين في النجف أولاً ، وليران ثانياً .

الذين اتخلوا من يوم عاشوراء يوم سرور وأفراح . . . فحين كان الشيعة يذوبون حزناً ونوحاً على الحسين يوم عاشوراء ، كان أهل السنة في عيد وسرور! وأول ما فعل ذلك في القرن الرابع كان في سنة ٣٨٩ هـ .

وما أكثر ما كانت تقع الفتن بين أهل السنة والشيعة . ولقد قبض معز الدولة البرويهي على الخليفة العباسي المستكني وأنزله من على العرش بصورة مهينة ، لأنه اتهم بأنه كان قد قبض على رئيس الشيعة . . . وما أكثر ما كانت تعطل الصلاة في الجوامع بسبب الفتنة بين الطائفتين كما حدث في سنة ٣٤٩ هـ ، ببغداد . ولقد شهدت سنة ٣٩٨ هـ ، حادثة الفتنة العظيمة بين أهل الكرخ ورجال السنة بقطيعة الربيع . وقد كاد يضيع في هذه الفتنة محمد بن النعمان فقيه الشيعة ، وابن الأكفاني ، وأبو حامد الإسفرائيني من علماء السنة ، بسوء ما صنعه أحداث بغداد وأغرارها . . . وبلغت الحوادث حداً أحفظ الخليفة العباسي «القادر» ، فأرسل الحرس الذين حول بابه لمعاونة أهل السنة . . .

ولا شك أن شاعرنا الشريف الرضي كانت تحز في صدره حوادث الشغب والفتن بين طائفتين أختين من المسلمين ، وهما الشيعة والسنة . وذلك بما جبل عليه من التسامح والبعد عن التعصب . وهو تسامح ورثه عن أبيه الشريف الموسوي الذي كان يتوهم دائماً بدور المصلح الموقر بين المتخاصمين .

ولقد سجل التاريخ للشريف المرتضى دوراً نبيلاً للوساطة بين السنة والشيعة ، في أحداث سنة ٤٢٠ هـ ، ويذهب مع قوم من مشايخ أهل الكرخ الشيعة إلى دار الخليفة القادر ، فيعتذرون من جنابة مذهبية قام بها أحداث الكرخ . . .

ولعل من أطرف ما نختم به هذا الفصل ما رواه التنوخي في «نشوار المحاضرة» من استغلال بعض الناس لهذا الخلاف ، فقد كان هناك سائلان ضريبان يقفان على جسر بغداد ، ويتوسل أحدهما بعلي ، والآخر بمعاوية ! ويعطيهما الناس على قدر ولائهم وميوطهم ، فإذا ما انصرفا آخرا النهار - أو آخر اليوم - اقتسما ما جمعا من القود بالسوية لأنهما شريكان ! !

ح - الحياة العقلية

على الرغم من اضطراب الأحوال السياسية في القرن الرابع وكثرة الممالك والدويلات الجديدة فيه فإنه كان عصرًا حيًا حافلًا بالحركات العلمية في شتى نواحي المعرفة . ولقد امتاز هذا العصر بأنه احتشد فيه طائفة من العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء ورجال اللغة والبيان قل أن يحتشدوا في عصر واحد . . . ولا شك أن كثرة السلاطين والأمراء في أنحاء المملكة الإسلامية كانت من أهم العوامل في إبراز هذه النهضة . فإن نصراء العلم والأدب في هذا العصر لم يكونوا الخليفة العباسي وحده ، أو واحداً من وزرائه وبعض عماله ، ولكنهم كانوا مجموعة من الملوك والسلاطين والأمراء والوزراء في أشهر مدائن العالم الإسلامي .

ومن حسن حظ العلم والأدب في هذا العصر أن الملوك دائماً يحبون أن يتنافسوا في الاستكثار من الأدباء والشعراء والعلماء حوهم ، وتقريبهم من بلاطاتهم . وكان هذا التنافس في حد ذاته من مصلحة العلم والأدب . وحسبك أن يجتمع في عصر واحد أمثال هذه الدول العربية الإسلامية ، وهي السامانية ببخارى ، والزيارية بمرجان ، والبويهية بالعراق وفارس ، والحمدانية بحلب وما بين النهرين ، والغزنوية بأفغانستان والهند ، والفاطمية بمصر ، ودولة الأمويين بالأندلس . واتسع الإنتاج العقلي العربي فدخلت فيه ثمار القرائح الإسلامية غير العربية من ترك وديلم وقرس وروم وغيرهم .

ولم يكتف سلاطين هذه الدويلات وأمراؤها بتشجيع العلم والأدب ، وحماية العلماء والأدباء وإيوائهم إلى أكتافهم الرحبية ، بل كان عدد من هؤلاء الأمراء أدباء أو علماء أو شعراء . ففضد الدولة بن بويه كان له مشاركة في عدة فنون من الأدب ، ولهذا قرب إليه الأدباء والكتاب والشعراء ، فكان منهم أبو إسحاق الصابي ، وأبو علي الفارسي ، والمتنبي ، والسلافي . وعز الدولة بن بويه كان شاعراً ، وكذلك كان تاج الدولة بن بويه . وكان الأمير نوح بن منصور

الساماني راغباً في العلم ، شديد الحرص على اقتناء الكتب ، حتى جمع مكتبة عظيمة أشاد بها الفيلسوف ابن سينا ، وقال إنه أفاد منها كثيراً . . . وكان قابوس بن وشمكير ملك الدولة الزيرية في طبرستان أديباً عربياً ممتازاً ، وشاعراً ملحوظ المكان ، وله مراسلات عالية دارت بينه وبين الصاحب بن عباد . وكان سيف الدولة بن حمدان ملك الحمدانيين - فوق مزايه في الفروسية والحروب - أديباً شاعراً نقاداً حسن الذوق ، وقد روى الثعالبي طائفة حسنة من أشعاره وأخباره :

على أن أكثر هؤلاء الملوك قربوا إليهم العلماء والأدباء واستوزروهم ، وزادوا في إنشاء المكتبات وجلبوا لها نفائس الكتب ولم يضمنوا في سبيلها بمخزون الثلاث . فركن الدولة بن بويه اتخذ ابن العميد الكاتب المشهور وزيراً له ، واستوزر معز الدولة البويهى الكاتب الشاعر المهلبى ، واستوزر مؤيد الدولة بن بويه الصاحب بن عباد الأديب الشاعر العالم . وأراد السلطان محمود الغزنوى أن يستقدم إليه جماعة من العلماء الذين يحتشد بهم مجلس أمير خوارزم ، وفي جملتهم البيرونى المؤرخ الرياضى ، وابن سينا الفيلسوف الطيب ، وأبو نصر الرياضى ، وأبو سهل المسيحى الفيلسوف . وسيف الدولة الحمداني كان مجلسه حافلاً بالشعراء ، حتى قيل إنه لم يجتمع بباب أحد من الملوك ما اجتمع ببابه من الشعراء . ومن الشعراء المطيفين به المتنبي ، والسرى الرقاء ، والبيغاء ، والنابى ، والوإواء الدمشقى ، وأبو فراس الحمداني .

أما المكتبات الكبرى فكانت طابع هذا العصر الذى تنافس فيه الملوك والأمراء بمصر والعراق والشام والأندلس على إنشائها . وكان طلاب العلم يفدون على هذه المكتبات للاغتراف من مناهلها ، فما سدت أبوابها أمام طالب ، ولا أوصدت دون راغب ، ومن هذه المكتبات مكتبة الأمير فوح بن منصور الساماني التى أفاد منها ابن سينا الفيلسوف كما سبق القول ، ومكتبة الحكيم بن الناصر بالأندلس التى كان يوفد الرجال والتجار لشراء للكتب لها من كل صوب ، مهما كانت أثمانها . وهو الذى بذل لأبى الفرج الأصبهاني ألف دينار ذهباً على

أن يبعث له بنسخة من كتابه « الأغاني » قبل أن يرسله إلى الخليفة العباسي . ولا ننسى منا المكتبة التي أنشأها العزيز بالله الفاطمي في القاهرة ، والتي أنشأها الحاكم بأمر الله الفاطمي وأسمها دار الحكمة ، أو دار العلم ، فقد كانت هذه الخزائن تعج بالآلاف الآلاف من الكتب في شتى فنون العلم والأدب والشعر والتاريخ والطب والفلسفة واللغة والفقه .

وإذ أخذنا نعد المكتبات وخزائن الكتب العامة والخاصة التي أنشئت في ذلك العصر لطلال بنا الخيال ، ويكفي أن نشير هنا إشارة عابرة إلى مكتبة « سابور بن أردشير » وزير بني بويه في الكرخ غربي بغداد ، ومكتبة ابن حمدان الموصلي الفقيه الشافعي الذي كان لا يمنع إنساناً من دخولها والإفادة منها ، وكان هو نفسه يجلس فيها ويملي من شعره وشعر غيره ، ثم زاد في الفضل فكان يمد المعسر من الطلاب بما هم في حاجة إليه من المال . ومكتبة أبي علي بن سوار من حاشية عضد الدولة ، فقد أقامها في مدينة رام هرمز على شاطئ الخليج العربي .

على أن الشريف الرضي نفسه أنشأ داراً سماها دار العلم^(١) ، وفتحها لجميع الطلاب ، وعين لهم جميع ما يحتاجون إليه من الكتب ومن كل شيء حتى دهن السراج ولما علم بأن خازن دار العلم كان غائباً حين احتاج أحد الطلبة إلى دهن لسراجهم وليس معه مفتاح لخزانة الدهن ، أمر بأن يتخذ للخزانة مفاتيح بعدد الطلبة ، ليستعمل كل طالب مفتاحه دون حاجة إلى الخازن

وبما لوحظ في الحياة الأدبية بهذا العصر أن الشعراء كثروا فيه كثرة لم يشهدها عصر إسلامي سابق ، وأصبح المسلمون من غير العرب لهم مجال في الشعر كما كان لهم مجال في فروع العلم والأدب المختلفة . وماجت العراق والشام و مصر

(١) أنشأ أخوه الشريف المرتضى أيضاً مدرسة أسماها دار العلم ، ووقف قرية من قرى تصرف مواردها على قراطين الفقهاء والطلبة . وروى صاحب « روضات الجنات » أن خزانة كتبه ضمت ثمانين ألف مجلد وقومت هذه الكتب بثلاثين ألف دينار على ما رواه الثعالبي في يتيمة الدهر ، ونقله رشيد الصفار المحامي في مقدمته لديوان المرتضى .

والأندلس والمغرب وخراسان وتركستان وطبرستان والأهواز وجرجان وبخارى
 وخوارزم ونيسابور بالشعراء من أمثال مبيار الديلمي ، وأبي الحسن علي بن
 عبد العزيز ، وأبي العلاء السروي ، وقابوس بن وشمكير ، وأبي الحسين المرادى ،
 والبوشنجي وغيرهم . . .

ولوحظ على الشعر في هذا العصر زيادة أغراض جديدة فيه تلائم روح
 المجتمع العربي الجديد وظروف الحياة فيه ، كشعر الإخوانيات ، والشكوى من
 الزمان ، والعتاب ، والزهد ، والمداعبات والفاكهات ، والسلطانيات ، والمقارضات ،
 والزهريات . ولا نريد أن نقول إن هذه الأبواب كانت جديدة كل الجدة ،
 فلقد ظهرت نماذج منها في العصور السابقة ، ولكنها في هذا العصر صارت ،
 بارزة مستقلة .

وإلى جانب علوم الأدب واللغة والفقه والكلام والتاريخ والجغرافية التي نمت
 في هذا العصر ، زاد الاشتغال بالطب والفلسفة والفلك والرياضيات . وبلغ عدد
 أطباء بغداد وحدها في عهد المقتدر العباسي ٨٦٠ طبيباً . ويكنى أن ابن سينا
 من رجال هذا العصر في الطب والفلسفة ، وأن البيروني من رجال الفلك والرياضيات ،
 وأن جماعة إخوان الصفا كانت من ثمار هذا العصر .

ولقد بلغ اهتمام العرب والمسلمين في هذا العصر بالأرصاد السماوية حدّاً
 عظيماً ، فالمرصد الحاكمي يقام بمصر على جبل المقطم ، والسلطان البويهى شرف
 الدولة بأمر برصد الكواكب السبعة في مسيرها وتقلها في بروجها على نحو ما كان
 يفعله المأمون العباسي في زمانه ، فيبنى داراً محكمة للرصد في آخر البستان بدار
 المملكة سنة ٣٧٨ هـ .

ولم تكن المرأة العربية المسلمة في هذا العصر بعيدة عن مجال العلم وخاصة
 علوم الدين ، فترى الحافظة المحدثنة سنيّة أمة الواحد المتوفاة سنة ٣٧٧ هـ ،
 وكانت من أحفظ الناس للفقه الشافعي ، والحافظة أمة السلام المتوفاة سنة ٣٩١ هـ ،
 والواعظة ميمونة بنت ساقوة المتوفاة سنة ٣٩٣ هـ .